

الباب التاسع والسبعون: في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(١) ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾^(٢) وفتح باب الرجاء فقال: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾^(٣) وروي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإنني أتوب إلى الله تعالى في اليوم مائة مرة».

روى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم»، فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحية، أو قال بضجة». فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٤).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده، من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال أرجع إلى المكان الذي ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فقلبت عينه فاستيقظ، وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري. وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٥) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» رواه مسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا فقتله وكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٢) سورة: الشورى، الآية: ٢٥.

(٣) سورة: الزمر، الآية: ٥٣.

(٤) الفرغرة: تردد الروح في الحلق.

(٥) هي علامة يوم القيامة.

أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال نعم ومن يحل بينك وبين التوبة انطلق كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. فقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكموه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها فقاوسه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة. متفق عليه. وفي الصحيحين: فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشير فجعل من أهلها.

وعن أبي نجيذ بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبْتُ حداً فأقمه عليّ فدعا نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت. ثم صلى عليها. فقال عمر يا رسول الله تصلي عليها وقد زنت قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت أفضل ممن حادت بنفسها لله عز وجل^(١). رواه مسلم. وعن أبي نضرة قال: لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له: سمعت من أبي بكر شيئاً قال نعم سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصرّ من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكي أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أته امرأة حسناء تشتري تمراً فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾^(٢) إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً ينفعي الله منه بما شاء ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلقتة، فإذا حلف لي صدقته وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له» وروي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أذنب العبد ذنباً فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به فغفر له، ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنباً آخر فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء». وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلّكم على دائكم ودوائكم أما دوائكم فالاستغفار، وأما دوائكم فالذنوب. وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقال رسول الله ﷺ: «من قال عشراً حين يصبح، وحين يمسي استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عاليج. ومن قال: سبحانك ظلّمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت مثل ديبب النمل». وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر، وزيد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا: اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك من كل ما وعدتكم من نفسي، ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل

(١) الحديث رواه مسلم بغير هذا اللفظ وبزيادة في الرواية حيث تبددت الرواية هاهنا.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٥.

عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك. يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفري فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفري فأغفر له، لا هو يترك الذنب من مخافتني ولا ييأس من مغفرتي أشهدكم يا ملائكتي أشهدكم يا ملائكتي أنني عد غفرت له. وقال بشر الحافي: بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين: ترفقوا عليه سبع ساعات فإن استغفري فلا تكتبوها وإن لم يستغفري فاكتبوها.

نكتة: قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات، وهلك الحيوان فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام فلم تمطر لهم فقال موسى: اللهم أنت القاتل ادعوني أستجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غداؤه حرام، وفيهم من يسيط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا نام، ولكن موسى، توبوا كلكم بقلوب خالصة فساهم يتوبوا معكم فأجود بأنعمي عليكم. فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه، والعصاة يذرفون فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جنتك من أوزارنا هارين، ورجعنا إلى بابك طالبين، فارحمنا يا أرحم الراحمين فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين. أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليّ. ولقد أحسن من قال:

أسىء فيجزى بالإساءة إفضالاً	وأعصي فيوليني برأ وإمهالاً
فحتى متى أجفوه وهو يرني	وأبعد عنه وهو يبذل إيصالاً
وكم مرة زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا الباب والله أعلم بالصواب.